

قراءة في رواية الكهف الأظلم

جزء من المقدمة:

وتأتي هذه الرواية إسهاماً في إبراز جانب من التراث العلمي للأحساء والجزيرة العربية، وإلقاء الضوء على أحد أعلامها الذين أسهموا في إثراء المكتبة الإسلامية مع التركيز على أبعادهم العلمية والإنسانية، بعيداً عن الخلافات الفقهية أو السجلات التاريخية، إيماناً بأن المعرفة جسر للتواصل، وأن التراث العلمي يمثل رصيداً حضارياً مشتركاً يستحق أن يُستعاد ويُعرف به.

جزء من الرواية:

تناول يوسف ثمرة محشوة باللوز، ثم قال: وكيف بدأت مناظرة الهروي مع ابن أبي جمهور؟.

أخذ على يروي هم ما استخلصه من المصادر التي تناولت تلك المناظرة، وكيف انعقدت المجالس الثلاثة، وكيف دار الحوار بهدوء، وتبادل الطرفان الرأي والحجة في عدد من القضايا العلمية، وسط أدب رفيع واحترام متبادل، حتى استغرق الأصدقاء في الإصغاء.

وبعد أن ارتشف يوسف رشفة من قهوته، قال متطلعاً إلى علي: وماذا خرجت أنت من تلك المناظرة؟.

فتح علي دفتره، وقلب بعض صفحاته، ثم قال: كان مما شدني فيما قرأته عن سيرة ابن أبي جمهور أنه لم يكن يفصل بين الرحلة والعلم، فقد كانت أسفاره امتداداً لبحثه وتأمله وتذكر المصادر أنه، بعد عودته من الحج إلى الأحساء، انتقل إلى العراق، ثم عزم على التوجه إلى خراسان حيث تهيأت له الظروف لإتمام بعض مؤلفاته. وكأن الطريق عنده لم يكن انتقالاً بين المدن، بل رحلة أخرى في طلب المعرفة.

أغلق علي الدفتر برفق، وقال: هذه خلاصة ما استخلصته من كتبه والمصادر التي تناولت سيرته، لأنها تكشف جانباً من رحلته العلمية والظروف التي رافقت تأليف عدد من مؤلفاته.

قال حسن بإعجاب: يا لها من عزيمة!، كان يكتب في السفر، وبين التعب والسهرة، ولا يعلم هل تسعفه

الأيام لإتمام ما بدأه.

وقال يوسف متأثراً: رجل لم يجعل من مشقة الطريق عذرا، بل جعلها جزءا من مشروعه العلمي. أما نحن، فكثيرا ما تؤخرنا أقل العقبات.

نظر محمد إلى فنجانه، حتى اسم الكتاب يحمل معنى جميلا زاد المسافرين. كان كل ما لقيه من تعب تحول إلى زاد ينتفع به من جاء بعده حقا، كلما تعرفت إلى سيرته تغيرت نظرتي إلى قيمة العمل.

وسأل يوسف: من أين جاء بكل هذه العزيمة؟.

أجابه علي: أطنها ولدت من اجتماع أمرين: محبة العلم، والإخلاص فيما يسعى إليه الإنسان. فإذا اجتمعا أصبحت العقبات مراحل في الطريق، لا نهايته.

رفع محمد يده، وقال: أما أنا فسأواصل ما بدأت به من أعمال البر، وسأدعو لهذا العالم بالرحمة، وأحاول أن يكون أثر ما تركه من علم حاضراً في عملي، لا في قراءتي وحدها.

وقال حسن، وهو يتأمل خيوط الغروب: تعلمت اليوم أن العقبات لا توقف أصحاب العزيمة، بل تمتحن صدقهم. وما قرأته عن سيرة ابن أبي جمهور علمني أن أواصل السعي والكتابة، ولو طال الطريق.

وقال يوسف بحماس: ونحن أيضا لن نجعل مشاغل الحياة عائقا، بل سنجعل من كل تعب زادا يقرينا من العلم والفضيلة.

ثم سكت قليلا، وقال: علي، هناك أمر لم أخبركم به. قبل سنوات قرأت أحد كتب ابن أبي جمهور، وكنت أدون خواطري في كراسة صغيرة أخفيها بين أوراق. وفي أحد الأيام سألني أحد طلابي: لماذا تحب هذا العالم؟

فتوقفت طويلا، ثم قلت له: لأنه جعلني أدرك أن السؤال بداية. المعرفة. يومها شعرت أن جهدي لم يذهب سدى وقررت أن أجمع تلك الأوراق، لعل فيها نفعا لغيري.

قال حسن: هذا هو أثر العلم، أن يبقى حيا في النفوس.

وقال محمد بارتياح: الآن اطمأن قلبي.

ثم التفت إلى علي مبتسماً، وقال: رحلتك المعرفية ممتعة، لكنها تنتهي بسرعة.

ابتسم علي، وقال: بل هي لا تنتهي، إنها تبدأ من جديد كلما عاد المسافر بما تعلمه.

رفع الجميع فناجين القهوة، وقالوا بصوت واحد: إلى رحلة جديدة في طلب العلم.